﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ٤٧﴾ [الإسراء: 47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

استماع الهدى على وجه التّكذيب والاستهزاء لا التّدبُّر وطلب الاهتداء

لما أُخبِر - فيما سبق - عن ذلك البعد الّذي فرضه الله على المشركين بين فهمهم، وبين المعاني الصادقة للقرآن الكريم، حتى لكأنه بينهم وبين سماع القرآن بصدقٍ من الرّسول ﷺ حجاب مستور محصَّن، ولكأنَّ قلوبهم مُغطّاة بأغْطية، وأسماعهم قد صبَّ فيها ما يحول بينها وبين السماع اللائق بالقرآن، وهو سماع الفهم والتدبُّر، ولما كانوا مكابرين حتى في الاعتراف بهذا البعد بينهم وبين فهم القرآن، فـ "ربما ادعوا السمع والفهم، فشككوا بعضَ من لم يرسخ إيمانُه، أتبعه تعالى ما يؤكّد ما مضى، ويثبت السامعين فيه، فقال تعالى على طريقة الجواب، مهدّدًا ودالًّا على أنّ مداركهم معروفة: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾"[1] مبينًا سبحانه أنهم ما كانوا يسمعون القرآن للفهم، والتدبّر، ولكن للاستهزاء والتكذيب والإرجاف.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾: (سمع): أَصْلٌ واحِدٌ، وهو إيناسُ الشَّيءِ بالأُذُنِ مِنَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، تَقولُ: سَمِعْتُ الشَّيءَ سَمْعًا[2]، والسَّمْعُ: قوَّةٌ في الأُذن تُدرك بها المسموعات، وفِعله يُقالُ له السَّمْعُ أيضًا[3]، والجَمع أسماع، والسَماعُ: ما سَمِعْتَ بِهِ فشاع وتُكُلِّمَ بِهِ، والسَميعُ من صِفات الله وأسمائه[4]، والاِسْتِماعُ: الإصغاء[5]،

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 11/ 436.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع).
(3) الرّاغب، المفردات، السمين، عمدة الحفاظ: (سمع).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن الأثير، النهاية: (سمع).
(5) الرّاغب، المفردات: (سمع).

والمقصود بالسَّمْع في الآية: الإحساسُ الَّذي به إدراكُ الأَصواتِ الَّذي آلَتُهُ الصِّماخُ[1].

2) ﴿نَجْوَىٰٓ﴾: أصلُ (نجو): كلمةٌ تَدلُّ على سَتْرٍ وإخْفاءٍ، فالنَّجْوُ والنَّجْوَى: السِّرُّ بَيْنَ اثْنَيْن، وقيل: أصلُه مِنَ النَّجاةِ، وهو أن تَنْجوَ بسرِّك مِنْ أنْ يطَّلع عَليك، وناجَيْتُهُ، وَتَناجَوْا، وانْتَجَوْا، وهو نَجيُّ فُلانٍ، وانْتَجَيْتُهُ: اخْتَصَصْتُهُ بِمُناجاتي، والنَّجيُّ: المُناجي، ويُقالُ للواحدِ والجَمْعِ، قال تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: 52][2]، والمقصود بالنَّجوى في الآية: المُحادَثَةُ سِرًّا.

3) ﴿مَّسْحُورًا﴾: أصلُ (سحر) يدلُّ على خَدْعٍ وَشِبْهِه[3]، وحقيقةُ السِّحْرِ صَرْفُ الشَّيءِ عَنْ حَقيقَتِهِ إلى غَيْرِه، فكأَنَّ السّاحِرَ لَمّا أَرَى الباطلَ في صورَةِ الحَقِّ وخَيَّلَ الشَّيءَ على غيرِ حَقيقَتِه، قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عَنْ وَجْهِهِ أَي صَرَفَهُ، تَقول العَرَبُ للرَّجُل: ما سَحَرَكَ عَن وَجْه كَذا وَكَذا؟، أَي: ما صَرَفَك عَنهُ[4]، والمَسْحور: ذاهِبُ العَقْلِ المُفْسَدُ[5]، والسِّحْرُ: الأُخْذَةُ؛ وكلُّ ما لَطُفَ مَأْخَذُه ودَقَّ، فَهوَ سِحْرٌ، والجَمْعُ أَسحارٌ وسُحورٌ، ورجلٌ ساحِرٌ مِنْ قَوْم سَحَرَةٍ، والسِّحْرُ: البيانُ في فِطْنَةٍ[6]، والمقصود بالسِّحرِ في الآية: تَخْييلُ ما ليس بِكائِنٍ كائِنًا[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لقد ساقَ الحقُّ سبحانه ما يدلُّ على كمال عِلمه، وأنَّه تعالى سيُجازي هؤلاء الكافرين بما يَستحِقّونَ مِنْ عِقابٍ، فقال ﷻ: ﴿نَّحْنُ

تأكيد علمه تعالى باستماع المشركين إلى القرآن، واتّهامهم الرّسول بالباطل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (نجو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (سحر).
(6) ابن منظور، لسان العرب، الزّبيديّ، تاج العروس: (رهق).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 26.

أَعْلَمُ﴾ يا مُحمَّدُ ﷺ باستِهزاءِ المُشرِكينَ واستِخفافِهم بالقُرآنِ، وتَكذيبِهم به وَقتَ استِماعِهم إليك وأنت تَتلوه؛ نعلَم بما يتناجَى به مُشرِكو قَومِك في أمْرِك، ويُسارُّ بَعضُهم بَعضًا بشأنِك، حينَ يقولُ المُشرِكونَ وهم يَتناجَوْنَ فيما بينَهم: ما تتَّبِعونَ - إنِ اتَّبَعتُم مُحَمَّدًا ﷺ - إلّا رَجُلًا مَغلوبًا على عَقلِه بالسِّحرِ، يَهذي بكَلامٍ، ولا يَدري ما يَقولُ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾:

الـجـواب عن التّساؤلات قبل حصولها فضحٌ للمشركين

لما كان موقف المشركين من القرآن الكريم بسبب اشتماله على الدعوة إلى التوحيد وذم الشرك معروفًا من شأنه أن يُثير سؤالًا: لماذا إذن كانوا يحرصون على استماع القرآن من النبي ﷺ مُظْهرين ذلك أحيانًا، ومُتلصّصينَ على قراءته أحيانًا أخرى؟ فجاء الجواب محمَّلًا بإبراز الأسباب: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

سرُّ التّعبير بضمير ذي الجلال ﴿نَّحْنُ﴾:

تـصـديـر جـملـة الاسـتـئـنـاف بـضـمـيـر الـعـظـمـة يـبـرز كـمـال الـعـنـايـة بمضمونها

الغرض من إسناد العلم بغايات استماع المشركين للقرآن إلى ضمير العظمة الإلهية ﴿نَّحْنُ﴾ يبرز كمال الاعتناء بمضمون الآية الكريمة، حيث يكون المعنى: أن الله يعلم علمًا حقًّا داعي استماعهم، فإنْ كثُرت الظنون فيه، فلا يعلم أحدٌ ذلك السبب[2] على حقيقته إلا الله تعالى؛ لأنّه صاحبُ العلم المطلق بحقائق الأشياء، حيثُ لا يحول بينَه وبينها شيء.

(1) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/ 534، وابن جرير، جامع البيان: 14/ 611، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 83، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 459.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 120.

دلالة المجيء بالمسند أفعل تفضيل ﴿أَعْلَمُ﴾:

أفعل التّفضيل (أَعْـلَـمُ) ليس للمفاضلة؛ بل لـلـدّلالـة على مُطلق علم الله

وبيانُ هذا أنّ صيغة (أَفْعَلُ) هنا ليست دالَّة على المفاضلة بين علمه سبحانه وعلم غيره، فهذا غير مُرادٍ قطعًا؛ بلْ هي دالّة العلم المطلق للّه، فإنَّ "﴿أَعْلَمُ﴾ اسم تفضيل مُستعمَلٌ في معنى قوة العلم وتفصيله، وليس المراد أن اللّه أشد علمًا من غيره، إذ لا يقتضيه المقام"[1].

معنى الباء ودلالتها في قوله ﴿بِمَا﴾:

الباء في (بِـمَا) للتّعدية، وهي ذات أثـر في المعنى

الباء في قوله: ﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾، جاءت لتعديّة اسم التّفضيل ﴿أَعْلَمُ﴾ إلى متعلقه؛ لأنّه قاصر عن التّعدية إلى المفعول بنفسه، فاسم التفضيل المشتق من العلم ومن الجهل يُعدَّى بالباء، وما سواهما باللّام تقول: هو أعلم بحاله، وأكسى للفقراء[2].

نكتة التّعبير باسم الموصول (ما):

التّعبير بـ (ما) أجمع وأشمل وأخصر

في قوله تعالى: ﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾ أوثر التّعبير بـ (ما) الموصولة؛ لكون التّعبير بها أجمع وأخصر؛ أي: نحن أعلم بجميع الأغراض التي لأجلها كانوا يستمعون للقرآن، مهما حاولوا إخفاءها، أو إخفاء بعضها، وقد أبان عن بعض ما اختزل فيها وجمعه قوله تعالى: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾:

الإشـارة إلى حـرصـهـم عـلى استـمـاع القرآن للتربُّص والتّصيُّد

التّعبير بالمضارع ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ دالٌّ على حرصهم على استماع القرآن، وتكرره كلَّما سنحت لهم فرصةٌ للاستماع إليه؛ لتحقيق أغراضهم المتنوعة من اتهام القرآن – على غير قناعة منهم – بأنّه سحر أو كهانة ونحو هذا، فهم كانوا أعرف الناس بأن القرآن أبعد ما يكون عن هذه الأوصاف، كما تدل لذلك الأخبار الكثيرة.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 120.
(2) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 37.

ونتخيَّر منها خبر أنيس أخي أبي ذر الغفاري الصحابي الجليل ﷺ، وكان أنيس بن جنادة أخو أبي ذر الغفاري ﷺ من الشعراء، وقد سبقه أخوه أبو ذرٍّ إلى الإسلام، فنزل أنيس مكة، وكان ما يزال على الكفر فسمع بأمر النبي ﷺ ودار بينه وبين أخيه أبي ذر حوار رواه مسلم في صحيحه وفيه: "فقال أُنيس: إن لي حاجة بمكة فاكفني، فانطلق أنيْس حتى أتى مكَّة، فراثَ عليَّ، ثم جاء فقلت: ما صنعت؟ قال: لقيتُ رُجلا بمكَّة علَى دينِك؛ يزعم أن اللّه أرسله، قلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعرٌ، كاهنٌ، ساحرٌ، وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سمعت قول الكهنة، فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أقراء الشّعر، فما يلتئم على لسان أحد بعدي؛ أنّه شعر، واللّه! إنه لصادق، وإنّهم لكاذبون"[1].

معنى الباء في ﴿بِهِۦ﴾ ودلالتها:

الباء للملابسة أو للسّببية، واستعمالها في الحالين مفصحٌ مبينٌ

الباء الجارَّة للضمير في ﴿بِهِۦ﴾ للملابسة، والمعنى: نحن أعلم بملابسات استماعهم، وقيل: الباء سببية[2] والمعنى: نحن أعلم بسبب استماعهم.

سرّ تقييد الفعل بالحال المؤوّلة ﴿بِهِۦ﴾:

الدّلالة على العلم الإلهيّ بما يحرصون على إخفائه حال استماعهم

قوله ﴿بِهِۦ﴾ في موضع الحال، كما تقول: مستمعين بالهزؤ[3]، أو متلبِّسين به[4]، فاستماعُهم وما يحيط به من مظاهر وأحْوالٍ كلُّه مكشوفٌ على حقيقته للّه تعالى؛ لأنَّ منهم مَن كان يُخفي عن الناس أسبابه الحقيقية لاستماعه، كمن كان يُظهر لقومه أنَّه يستمع للقرآن بغرض التربّص والإرْجاف، بينما كان يُخفي غرضه الأساس مِنَ السَّماع، وهو التّلذذ به[5].

(1) مسلم، صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصّحابة ﷺ، باب: من فضائل أبي ذرّ ﷺ: 4/ 1920.
(2) الشِّهاب الخفاجيُّ، عِناية القاضي: 6/ 36.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 351.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 130.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 58، ويُنظر ما جاء في السيرة عن بعضهم أنّه كان يتسمّع القرآن، يُنظر: ابن هشام، السيرة النبوية: 1/ 315.

مرجع الضّمير في ﴿بِهِۦٓ﴾ ودلالته:

عِلمُ الله تعالى مُمتدّ إلى ما يُلابسهم لا إليهم وحدهم

الضمير المجرور في ﴿بِهِۦٓ﴾ عائد إلى (ما) في قوله: ﴿بِمَا يَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى: نحن لسنا أعلم فقط باستماعهم، ولكن "بالشَّيء الذي يُلابسهم حين يستمعون إليك"[1].

سرُّ تقييد الفعل بالظّرف ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ﴾:

وعيد الله لهم شديد، أمّا علمه فمطلق أكيد

﴿إِذْ﴾ في قوله: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرف لـ ﴿أَعْلَمُ﴾؛ أي: نحن أعلم بغرضهم من الاستماع حين هم مستمعون إليك، مُضمرون له[2]، وليس المُراد بالظرف تقييد علمه سبحانه بأغراضهم بهذا الوقت؛ أي: وقت استماعهم، فعلمه سبحانه مُطلَقٌ غير محدودٍ، بلْ المراد الوعيد الشديد لهم[3]؛ بسبب ما كانوا يضمرونه له ﷻ من سوء الغرض.

دلالة التّعبير بـ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ صيغة وزمنا:

مَنِ استمع ليستهزئ بالرّسول؛ كان عاقبة أمره الهوان

التّعبير بالمضارع ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ دالّ على تكرّر هذا الاستماع وتجدّده، وفيه فضح لهم.

السّينُ والتّاءُ إمّا زائدتان للطّلب، فهم كانوا يسلكون للاستماع للقرآن كلّ سبيل طلبًا لسماعه، أو أنّهما لتقوية الفعل، دلالة على كثرة الاستماع للقرآن، والمبالغة "في الإصغاء والميل لقصد السّمع ... إرادة الوقوع على سقطة يجعلونها موضع تكذيبهم واستهزائهم"[4]، ولتحقيق سائر أغراضهم الظّاهرة والباطنة، مِن وراء هذا الاستماع.

سرّ تقييد الفعل بالجارّ والمجرور ﴿إِلَيْكَ﴾:

حِرْصُ المشركين للاستماع من الرّسول للهُزء لا للانتفاع

قيَّد الفعل ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ بالجار والمجرور ﴿إِلَيْكَ﴾ للدّلالة على أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 130.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 257.
(3) الشّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 6/ 37.
(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 11/ 436.

حرصهم على الاستماع للقرآن، إنما كان مقيدًا بكونه منه ﷺ لا من سواه؛ لأنّ تحقيق أغراضِ الاستماعِ لن تكونَ على وجهٍ أكمل إلا إذا كان الاستماع منه ﷺ.

سرّ العدول عن (يستمعونك) إلى ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾:

الدلالة على أنّ غرضهم بالاستماع، لم يكن للفهم بل للهزء

وإنّما لم يقل: (يَسْتَمِعونَهُ) ولا (يَسْتَمِعونَكَ)، وقال: ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾؛ لأنّه لم يكن الغرض الإخبار عن الاستماع فقط، بل كان مقصودًا أن الاستماع كان على طريق الهزء بأن يقولوا: مجنون أو مسحور، فجاء الاستماع بالباء في ﴿يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾، وإلى في قوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، ليُعلم أنّ الاستماع ليس المراد به تفهم المسموع، دون هذا المقصد[1]، فإن كان قد عبَّر عن تكلُّفهم في السماع واجتهادهم في تحصيله بكلمة ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾، فإنه دلَّل بكلمة ﴿إِلَيْكَ﴾ على البعد المعنويّ[2] بينهم وبين ما يستمعون إليه.

دلالة الواو في ﴿وَإِذْ﴾:

الاستماع والتّناجي تحت علم الله ﷻ

وجملة: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ معطوفة على جملة: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾، فكلاهما الاستماع والتّناجي خاضعان لعلم الله تعالى، وفيه تعريض وتهديد لهم لما يترتّب على علمه منَ العقاب الشّديد.

غرض التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾:

تناجيهم وتآمرهم دائم على القرآن الكريم

التّعبير بالجملة الاسميّة يفيد الثّبوت، وعليه فالتّعبير بقوله: ﴿هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾، يدلّ على تناجيهم وتآمرهم الدّائم على القرآن الكريم، وكانوا ثابتين على هذا، ولذا تمخَّضت مجالسهم هذه عن اتهام القرآن بأنّه شعر، أو سحر، أو كهانة، أو أساطير الأولين، كذلك تمّ التّواصي في هذه المجالس – بعد اليأس من جدوى الطّعن في القرآن باللّغو فيه أثناء تلاوته؛ لعلّهم يغلبون بالتّشويش عليه،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 58.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 436.

وقد كشف القرآن عن تواصيهم هذا بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فصّلت: 26].

غرض التّعبير بالمسند إليه مُعرّفًا بالضّمير:

ما سبق ذكره يعبّر عنه بالضّمير من بعد الذّكر

عبَّر بالضّمير ﴿هُمۡ﴾ عن المسند إليه للعلم بهم، لسبق ذكرهم، فهم ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وضمائر الغيبة اللاحقة لهذه الجملة بدءًا من قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا ٤٦ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَسۡتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذۡ يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾ راجعة إليهم.

دلالة التّعبير بالمُسنَد مصدرًا:

المبالغة في الدّلالة على كثرة تناجيهم وتبييت المكر للإسلام وأهله

في الإخبار عن المُكذّبين بالمصدر ﴿نَجۡوَىٰٓ﴾ - حسب الرأي القائل بأنَّه مصدر - مبالغةٌ في الدلالة على كثرة تناجيهم عند استماع القرآن تشاغلًا عنه[1]، أو المراد تناجيهم بعد الفراغ من الاستماع إليه، ليتدبَّروا ما سيقولونه عنه، ويذهب بعض العلماء فيه إلى تقدير مضاف محذوف: أي ذوو نجوى[2]، وجوَّز آخرون أَنْ يكونَ قوله: ﴿نَجۡوَىٰٓ﴾ جمعَ نَجِيّ كقتيل وقَتْلَى[3] وليس مصدرًا.

سرّ التّعبير بالبَدَل في قوله ﴿إِذۡ يَقُولُ﴾:

اتّهام النّبيّ الأكرم بأنّه مسحور من أفظع اتّهاماتهم وأشنع افتراءاتهم

قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بدل من قوله ﴿وَإِذۡ هُمۡ نَجۡوَىٰٓ﴾، بدل بعض من كلّ، لأنّ نجواهم غير منحصرة في هذا القول، وإنّما خص هذا القول ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا﴾، بالذّكر لأنّه أشدّ غرابة من بقيّة آفاكهم[4]، وأنّه من أفظع اتّهاماتهم، وأشنع افتراءاتهم؛ إذ لا تلاقي أبدًا بين حال النّبيّ ﷺ وحال المسحور.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 120.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 671، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 176.
(3) السّمين، الدّرُّ المصون: 7/ 365.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 120.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَقُولُ﴾:

الدّلالة على تكرّر هذا القول منهم بوجود المضارع

دلّ التّعبير عن فعل القول بصيغة المضارع ﴿يَقُولُ﴾، على تكرّر هذا القول منهم؛ أي: أنّه لم يصدر عنهم مرّة واحدة فقط، ولكنّه تكرّر مرّات ومرّات.

غرض وضع المظهر ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

إبـراز الـوصـف الّـذي حملهم عـلى الـتّـنـاجـي بالسّوء في حقّ القرآن الكريم

وضع المظهر وهو لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ موضع المضمر؛ لأجل إبراز الوصف الّذي حملهم على التّناجي بالسّوء في حقّ القرآن الكريم[1]، فوصفوه بما وصفوه به من السّحر والشّعر والكهانة وغيرها، وهو الظّلم لا غير؛ فتناجيهم كان ظُلمًا لا شكّ في هذا، ومن دلالاته كذلك: بيان أنّ تناجيهم هو قولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾[2].

دلالة تعريف المسند إليه بـ(الْ) ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

التّعبير باسم الفاعل دلالة على رسوخهم في الظّلم

(أَلْ) في قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هي العهديّة، والمعهودون هم الّذين قالوا عن الرسول ﷺ: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾، وهم الّذين استمعوا وتناجوا، وفي التعبير عنهم باسم الفاعل ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ دون التّعبير بالفعل (ظلموا) للتّسجيل عليهم، وللدّلالة على رسوخهم في الظّلم، وأنّه فيهم طبع وسجيّة.

غرض القصر في جملة ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾:

الجملة حكاية لقولهم السّاخر اللّئيم

جملةُ مقول القول هي قوله سبحانه حكاية عن الظّالمين: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾، وهو قصرٌ موصوفٌ على صفة، وكان غرضهم من هذا القصر، حصر النبي ﷺ ودعوته في كونه مسحورًا، أي: مجنونًا قد ذهب عقله، أو مخدوعًا، فالمسحور كما قال ابن الأعرابي: "الذاهب العقل الّذي أفسد، من قولهم: طعام مسحور إذا أفسد عمله، وأرض مسحورة أصابها من المطر أكثر ممّا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 437.
(2) الطيّبي، فتوح الغيب: 9/ 309.

ينبغي فأفسدها، وقيل: هو المخدوع؛ لأن السحر الحيلة والخديعة، وذلك لأنهم زعموا أنّ محمّدًا ﷺ كان يتعلّم من بعض النّاس، وكانوا يخدعونه بذلك التّعليم"[1].

سر اصطفاء النّفي والاستثناء طريقًا للقصر:

الـدلالـة على الـتّـأكـيـد من الفصيح المفيد

في إيثار النّفي والاستثناءِ طريقًا للقصرِ، دلالة على أنّ المراد بالقصر هنا تأكيد المعنى.

سرّ التّعبير بالمضارع ﴿تَتَّبِعُونَ﴾:

لَـوْمُ المخاطبين على ما هم عليه وقت الخطاب

سرّ التّعبير بالمضارع ﴿تَتَّبِعُونَ﴾، مقصود به توجيه اللّوم والعتب على المؤمنين، في وضع التّناجي والإسرار؛ لاستمرارهم على متابعة الرّسول ﷺ، بل الحرص عليها والاستزادة منها، على معنى نحن نلوم عليكم الحالة الّتي أنتم عليها الآن من اتّباعكم ﴿رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾.

سرّ التّعبير بالمقصور نكرة ﴿رَجُلًا﴾:

التّقليل من شأن مـقـام الـنُـبُـوّة محاولة بائسة منهم

في التّعبيرِ بالنّكرة ﴿رَجُلًا﴾؛ أي: مجرد رجل وليس رسولًا، وهي محاولة بائسة من قبلهم للتقليل من شأنه ﷺ، وتوهين شأنه في عين أتباعه، وحاشاه وحاشاهم، فقد كان الرّسول ﷺ أجل في أعينهم مِن كلّ أحد إلا من ربّه الذي أرسله، وكان أحب إليهم مِنَ النفس والولد والنّاس أجمعين.

سرُّ وصف المقصور عليه باسم مفعول ﴿مَّسْحُورًا﴾:

المـسـحـور هو الّذي سُحِرَ فزال عقله

سرُّ وصف المقصور عليه بـ ﴿مَّسْحُورًا﴾، بصيغة اسم المفعول، تحايل منهم ومحاولة للتّلبيس في شأنه ﷺ على المؤمنين به؛ والمسحور هو الذي سُحِرَ فزال عقله[2]، على معنى: ما هذا الذي تتبعونه إلا رجلًا يخضع لتأثير السحر عليه، حتى صار مسحورًا فاقدًا عقله، إذن فالسحرة الذين أوقعوا به السحر حتى أزالوا عقله

(1) صديق حسن خان، فتح البيان: 7/ 402.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 257.

هم أقوى منه، فكيف يكون رسولًا متَّبَعًا؟ ومن شأن الرسول أن يكون معصومًا من تسلط شياطين الإنس والجن عليه، وهذا المعنى قائم على أن قولهم: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ هو من خطابهم للمؤمنين، وإن كان من جملة خطاب بعضهم لبعض عن التناجي فالمعنى: "أنكم إن اتبعتموه فقد اتبعتم رجلًا مسحورًا"[1].

الكناية في قوله: ﴿رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾

من المعاني الّتي وردت في معنى ﴿مَّسْحُورًا﴾ أنّه من السَّحَر وهو طرف الحلقوم، والرّئة[2]، والمعنى عليه: ما تتبعون إلّا رجلًا يتنفس ويأكل ويشرب مثلكم[3]، فيكون من باب (الكناية)، ويكون شبيهًا بقولهم الذي حكاه القرآن: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء: 94]، وأيضًا قولهم المحكي: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: 7].

المثليّة تمنع الاختصاص بالرّسالة

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاتِّباعُ والإيمانُ:

الإيمان هو التصديق واليقين والاعتقاد، وفي التعبير عن التصديق بالإيمان معنى زائد على التصديق وهو الأمان[4]، فالإيمان يحقق الأمان القلبي والنفسي، بل الأمان في الباطن والظاهر، والإيمان يزيد بالحرص عليها، وينقص بالتفريط فيها، أو على حد تعبير أهل العلم: يزيد بالبر وينقص بالجفاء.

الإيمان يكون في القلب، وهو أسبق وجودًا من الاتّباع

وأمّا الاتّباع، فهو من اتبعهُ: بِالتَّشْديدِ بِمَعْنى سار خَلفه[5]، الانقياد والاقتداء، والاتّباع مسبوق بالإيمان، أي: أنّه يكون بعد

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 351.
(2) الرّاغب، المفردات: (سحر).
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/ 257.
(4) الكفويّ، الكليّات، ص: 212.
(5) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 35.

الإيمان لا قبله، ويُعبّر عنِ الاتِّباع بالعمل على خطى المنهج، أي: أداء الشرائع والاقتداء بالرسول ﷺ فيما يأمر به وينهى عنه، كما هو ظاهر قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: 31 - 32].

والاتِّباع هو المقصود بعمل الصّالحات الّذي يأتي ردف الإيمان في تعبير القرآن كثيرًا، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة: 277]؛ فالإيمان يكون بالتّصديق القلبيّ، والاتّباع يظهر أثره في اتّباع الشّرائع، وأيضًا فإنَّ الإيمان مقدَّم على الاتّباع في الوجود والاتباع لاحقُه لترتّبه عليه، وعليه أيضًا فالتّعبير بـ ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ أنسب، وهو من كلام الكفار للمؤمنين، ومن الطبيعي أن يحاكموهم إلى الظّاهر، وهو الاتّباع فيذكروهم به، وليس إلى الباطن وهو الإيمان، فلا علم لهم به.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والعشرون،
سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 28 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-25-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 28 : المجلد الثامن والعشرون، سورة الإسراء من الآية 06 إلى الآية 77.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-25-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9844230 بتاريخ 2024/11/05م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»